

هفوة

للأستاذ الروسي الكبير أنطون تشكوف
بقلم الأستاذ فيصل عبد الله

من المرات ... لكم هي فتاة إذ يتوج
النجاح الأبيض قممها ، وتحيط بسفوحها
أشجار الصنوبر التي تحاول أن تنافس
الجبال طولاً وامتداداً في الفضاء ...
كما أن الأحجار البراقة المصقولة والحصى
الناعمة الدقيقة مبعثرة على سفوحها ...
منثورة حوالها ... آه ... لكم أود

لو أشبع رغبة نفسى التي تلجّ بي دائماً إلى تذكّر
تلك المشاهد الشعرية الغاتنة ، والتفكير فيها
فيقول لها زوجها : وهؤلاء القتر ... إنك
لم تحدثني عنهم شيئاً ... إن لم في حياتهم لفضائح
وفظائع مزيريات ، أجل ، فلقد قرأت هكذا عنهم
في الصحف عند غيابك ... فهلا يا (نانالى) شهدت
منها شيئاً ؟ ...

فيشحب وجهها ... وتملؤه سحابة نفور
واشمزاز ... ثم تهز كتفها في سخرية وهي تقول :
— إنهم ليسوا إلا تترأ بسطاء ، ليس فيهم مما
يجلب البصر ويسترعى الاهتمام ، أجل ، إننى أعرف
عنهم هذا ، وإن لم أدن منهم يوماً ... إنك لتعلم أيها
العزیز أننى لم أنس كرهى بمد هؤلاء التتر والشركس
واليونان .

لقد لوح لي بمض هؤلاء من الأدلاء ، ولكننى
لم أعر تلويحهم لي بمض التفات ، ولم أحفل بهم .
— ولكن المشاع أن كلا منهم زير نساء ،
أو (دون جوان) .

— قد يكون هذا ... إنما لا تنس يا عزيزى
أن هنالك من لا أخلاق لمن . وكأنا كرت بها
الذكرى إلى أمر غيّر أو حادث مزيّر ... فشحب
(٣)

كانت « نانالى » الشابة الحسناء تحدث زوجها
بحماس بعيد عودتها من (بالطة) عما شاهدته من
المباهج والطرف في زيارتها شبه جزيرة القرم ،
وما يتناولان النداء سوية ... وكان زوجها ينصت
لما ترويه منتبهاً مسروراً ، إلا أنه كان يقطع صمته
بين حين وآخر ، سائلاً زوجه سؤالاً سخيلاً عن
« دنيا التتر » وعن الميثة فيها ، وما يقال عن غلاء
أسبابها ، فكانت تجيبه أن هذا القول لا يخلو من
الغلو والخيال أحياناً ، إذ أنها وزميلة (بوليا بتروفنا)
كانتا تشغلان غرفتين مترفتين مريحتين لقاء بضمة
روبلات قد تبلغ المشرين في اليوم ، إلا أن كل هذا
يتوقف على تصرف الإنسان في قضاء رغبته ، فثلاً
إن اصطحاب الإنسان جواداً ودليلاً عند صعوده
الجبال ، لما يكلف من المال الكثير ، وعلى
ذكر الجبال تسرف « نانالى » في وصفها وإطراء
مفاتها ، ثم تحاول أن تصوّر زوجها تلك الروعة
التي تملك لب الإنسان وهو يسرح الطرف في تلك
الجبال ...

— لكم هي شاهدة خلابة ... تصوّر أيها
العزیز جيالاً شاهقات تكاد أن تنطح السماء
إنها لأعلى كثيراً من أبراج الكنائس بالآلاف

وجهها بفتة وصممت فجاء ، ثم عادت بعد صمت تقول :
 — فاسيشكا ، إن العالم لا يحلو من فقدان الحياة
 والكرامة ، ووطن الشرف بأقدام الطيش والرعونة
 يا لله ، ما أشنع فضائحهم وأزرى مخازيهم ... إنما
 العجب أيها العزيز أنهم سيدات ينسبن إلى أرق
 الطبقات وأرفع الأسر ، سيدات تعرفن المجتمعات
 خير معرفة ، وفيهن لآلى تضيء ، وكواكب
 تشرق وتوهج ... يا له من أمر فظيع ! لم أكن
 لأصوره من قبل ... خذ يا عزيزي مثلاً لمن ،
 تصور سيدة تناسي من هي ومن تكون ، وتنمى
 عن شرفها وكرامتها ! ... آه يا فاسيشكا ، لكم
 أرغب عن التحدث عن أمثال هذه الفظائع ، ولكن
 مع هذا ... تصور يا عزيزي سيدة رفيعة الحسب ،
 سامية المنزلة ، كزيميلتى فى سفرتى « بوليا بتروفنا »
 إن لها — كما تعلم — لبعلاً كريماً يمتن الطب
 وطفلين جميلين ، سيدة تعرفها المجتمعات الراقية والمحافل
 الرفيعة ، وتعلم أنها طالما أبدت نفسها كقديسة
 طاهرة ... فإذا بها فجأة ... ماذا ؟ ! ... يمكن
 أن يصدق هذا ؟ آه . يا عزيزي ... إن ما أخبرك به
 لهو سر غريقين بك أن تذيبه أو تبوح به لأحد .
 أنقسم لى على هذا ؟ ...

— طبعاً ... طبعاً ... ولكن ما الذى جرى ؟
 — إننى لا أملك فى هذا غير الثقة بك ، ثم
 طرحت شوكتها جانباً من الصحف ، وقالت هامسة :
 « لقد كان يوماً مشرقاً دافئاً ، امتطت فيه
 « بوليا بتروفنا » ودليل لها جواداً يقصدان الجبال ،
 أما أنا فقد كنت على مقربة منهما فإذا بها فجأة ،
 تضع يدها على صدرها ، ويبدو عليها الإغماء
 والإعياء ... إنه أمر فظيع ، لقد أحاط دليلها
 خصرها بذراعيه ، ولولا ذلك لصرعت أرضاً ،
 فأصرعت إليها ودليلي وسألتهما فى جزع وفزع

شديدين عما حل بها ... فقالت ...
 — أكاد أختنق ... إننى أحتضر ... فصرخت
 عليها العودة من حيث جئنا ، فأبت ذلك محتجة
 بعدم قدرتها على العودة وبمجزها عن السير ، وبأنها
 قد تفقد الحياة إن خطت خطوة واحدة ... ثم رجتنا
 وألحيت علينا — أنا ودليلي سليمان — أن نمود
 إلى المدينة لنحضر لها ما اعتادت تناوله من الأدوية
 فقاطمها زوجها :

— مهلاً ... إنك لنهرفين ... لقد قلت منذ
 لحظات إنك لم تريهم إلا عن بعد ، ولكنك
 الآن تذكرين أحدهم ، ذلك الذى تدعيه سليمان ...
 دليلك ...

— ألا تترك سوء ظنك جانباً ؟ إنك لا تعلم
 شيئاً للوم ... إننى لا أطيق هذا .. إنه أمر فظيع
 لا يصدر إلا عن أحق غيور

— لست بسىء الظن بك فأبحث عما يمهّد لى
 لومك وعذلك ، ولكنك تكذبننى فيما تقولين ،
 فإذا كنت قد اصططجت أحد هؤلاء التريوما فى
 ارتيادك الجبال ، فلم تذكرين هذا أولاً ثم تعترفين به
 أخيراً ؟

— حقاً إنه لأمر فظيع ... أو تغار من سليمان ؟ !
 أم حسبت أنه من المستطاع أن ارتاد الجبال دون
 ما دليل يدانى على أقوم السبل وأبهج المسالك ...
 لكم أود لو أراك تعصد الجبال وحدك دون ما دليل
 أو قائد ، إذا كنت يا عزيزي تجهل أموراً فلا ترجم
 بالغيب فتتحدث عنها كأن عندك الخبر اليقين ...
 إن الإنسان هناك ... ليس بإمكانه أن يجول قليلاً
 أو طويلاً .. دون ما دليل يشير إليه بالمسالك السهلة
 المأمونة ...

— يبدو لى ذلك !

الزوجية ، أما أن يفهم المرء ذلك على أنه أمر جدى
فذلك ما لا أفهمه وإنها لفظاعة ... ولنعد ليوليا ،
لقد استبدت بها الفيرة يوماً وسبتها ... آه لكم
هو أمر مخزى ذلك الذى أقدمت عليه . أقول لقد
سبتها الفيرة يوماً كانت فيه غائبة عن البيت ، فجاء
دليها (محمد قول) فدعوته إلى غرفتي لكي ينتظر
(يوليا) فيها حتى تجيء ، فتحدثنا فى أمور شتى
وتناولنا من الحديث ما يلذ ويطيب ، وإنهم كما
لا أظنك تجهله لقوم ظرفاء ، فأنسانى ظرفه أشباح
المساء المدبرة ، حتى عادت (يوليا) فرأت دليها
عندى فى غرفتي فلكها الغيظ وشاع فيها الحقد
الديم فأنهالت علينا - أنا ودليها محمد قول -
بالسباب المقذع والشم الفظيع ... وأى شتم هو ..
ثم عادت فى غشها وغيظها فاستعانت بالسك والصنع
تنهال بها علينا حتى شفت غليلها وابتردت من حمى
غيرتها أو كادت .. إنه لأمر فظيع أيمكن أن تتصور
هذا يا فاشيسكا ؟

أما فاشيسكا فقد قطب جبينه وشمل بحياه
المبوس ... ثم أخذ يقطع الغرفة جيئة ورواحاً
يفكر ويفكر ... ثم قال وقد اتضحت على ثغره
بسمه سخريه واحتقار :

- يا لها من سفره سعيده وأيام ناعمة هنيئة
قضيتها هناك ...

- إنه لأمر فظيع ... إنها لحماقة منك
لا تغتفر .. إننى لأدرك ما تذهب إليه .. فما كنت
يوماً بخال من هواجسك وظنونك ، إن أفكارك
السخيفة الآثمة لم تزل بعد تستبد بلبك وتعلأ
ذهنك ...

كلا ... لست بمحدثك عن شئ بعد اليوم
(نداد)
فبصل عهد الله

- أرجو ألا تفرط فى سخرتك وتهكمك .
احتفظ بهما لنفسك ... إننى لست (يوليا) ... إننى
وإن لم أسارها فى مسلكها وأخذ حذوها من قبل
فأزعم أننى قديسة طاهرة الذيل ... مصونة ... فلن
أجارها أخيراً ولم أجارها من قبل ... إذ أنسى
أو أتنامى نفسى وكرامتى ... إننى لم أسمع قط
لسليان أن يتعدى ما وضعت له ورسمت ... لقد كان
« محمد قول » يجالس (يوليا) فى غرفتها النهار كله .
أما أنا فقد كنت أصرخ بسليان إذا ما أرفت الساعة
الحادية عشر مساء :

- هيه سليان ... هيا أيها الأحمق اعزب
عن وجهى سريماً ... فكان يذهب مطيماً ما أقول .
وإذا ما تدمر من قلة الأجر - مثلاً - كنت أصرخ
به أن يسكت فيسكت ، ثم ينظر إلى يمينه السوداوين
وحياه التترى الوسيم الوديع مستمطفاً ذليلاً ... لقد
كان بسيطاً ساذجاً ... ياله من تترى ظريف !

فيتتم زوجها قائلاً : أستطيع أن أتصور هذا
- ما هذا يا فاشيسكا ... إنها لفظاعة منك .
إننى أفهم ما يدور بخلدك ويطوف بذهنك ، إنما أنت
مخطئ فى ظنونك ... إننى أؤكد لك أننى لم أسمع له
يوماً بأن يجتاز حدوده الموضوعه ، فثلاً إذا ما قصدنا
الجمال ذات يوم أو إذا ما عن لنا أن نمتع النفس
برؤية شلال (أوشالنسو) كنت أصرخ به :

- سليان ، هيا ... هيا امتطى جوادى خلقى
أسمع أنت ما أقول ... فكان المسكين يجيبنى إلى
ذلك بخفة ورشاقة ... لقد كنت أقول له حتى
فى أقرب المواقف التى كانت تمر بنا إلى ما نقرأ فى
القصص والروايات : لا تنس يا سليان أنك لست
إلا تريباً بسيطاً أما أنا فزوج مشير ... ها . ها
وصحبتك ساخرة ، ثم قالت : إننى لا أعرف
خيراً من المزاح البسيط يقتل الملل الذى يتخلل الحياة